مراكز التعذيب أثناء الثورة الجزائرية:
مزرعة أمزيان أنموذجا

أ. قبايلي هواري

جامعة معسكر

إن التعذيب وسياسته المؤسسة كانت ولا زالت من المسائل الجد حرجة والمعقدة في التاريخ الاستعماري الفرنسي، خاصة إبان الثورة التحريرية المجيدة , ففي عهدي الجمهورية الرابعة والخامسة وتوالي خمس حكومات كلها سقطت بسبب فشلها في القضاء على الثورة الجزائرية، كانت سياسة التعذيب تنفذ في اطار واسع من طرف الجيش ورجال الشرطة، وفق تقنيات مدروسة ومؤسسة بغية الحصول على المعلومات وفي أسرع وقت.

هذا في وقت كانت تنفي فيه فرنسا رسميا كل صلة لها بعمليات التعذيب، وهي التي كانت تتبجح بكونها حامية لحقوق الانسان في العالم، ولطالما تتبعت العدالة الفرنسية مجرمي الحرب العالمية الثانية ،من عملاء النازية وفرق الموت والشرطة النازية، والجيستابو وكل المتعاملين معهم من المواطنين الفرنسيين ،وعدتهم من الخونة، ولم تغفر للجنرال بيتان استسلامه لهتلر، رغم ماضيه المشرف كمنقد لفرنسا في الحرب العالمية الاولى، وبالتالي ظلت تتقفى أثر هؤلاء المجرمين ولعل من أبرزهم كلوز باربي Klaus Barbie، الذي سمي بجزار ليون Le boucher de Lyon; والذي حوكم سنة 1987 بعد طرده من بوليفيا وسط ضغوط دولية هائلة، بجرائم حرب وجرائم ضد الانسانية، ومن المفارقات كذلك أن سفاح ليلة 17 أكتوبر 1961 ضد المهاجرين الجزائريين محافظ شرطة

باريس موريس بابون Maurice Papon قد تمت متابعته كذلك بماضيه النازي وحوكم بسب تعامله مع المحتل النازي ومن مظاهر العنصرية الفرنسية أنه لم يذكر أحد أثناء المحاكمة أي شيء عن جرائمه في حق الجزائريين، وهوالذي كان مسؤولا قبل ذلك على الشرطة في القطاع القسنطيني وكان لابد يعلم جليا ما يحدث في معتقل مزرعة أمزيان، وبذلك حرصت فرنسا على تتبع كل مجرمي الحرب ابان الحرب العالمية الثانية، لكنها لا تريد ولا تفكر حتى في مواجهة ماضيها الاستعماري الهمجي اللاانساني بداية من عمليات التقتيل الجماعي، التهجير، المحارق، مصادرة الأراضي(Le Cour Grand maison, O .2005)، وصولا الى أقصى تجليات الواقع الاستعماري اللاانساني ابان الثورة التحريرية المجيدة والحرب المعلنة بلا هوادة ضد الشعب الجزائري، ومن السخرية من العالم أجمع أن العمليات العسكرية في الجزائر سميت بعمليات التهدئة Pacification، فحرق المداشر وتقتيل العزل من الأطفال والنساءوقصف القرى باستعمال الأسلحة المحرمة دوليا، كلها كانت في نظر المستعمر عمليات للتهدئة لا غير، ولكن ما كان يحدث في المحتشدات والسجون ومراكز التعذيب كان يفوق كل الوصف، ولا يزال الى يومنا هذا من دون أي اعتراف ولو ضمني بالمسؤولية عن هذه الجرائم من الجانب الفرنسي، فقد ظل جلادو فرنسا في منأىعن المسائلة القانونية، فرغم أن كل أركان الجريمة لا تزال قائمة من مسؤولية، وشهود ووجود كل الدلائل والقرائن، والأكثر من ذلك مصادقة فرنسا على الاتفاقية الدولية لجرائم الحرب والجرائم ضد الانسانية وبالمحكمة الدولية، هذه الأخيرة التي لا تعتبر أي جريمة يمكنها أن تسقط بالتقادم،

فحسب رأينا أن كل الظروف مهيئة لمتابعة فرنسا بماضيها الاستعماري في الجزائر، فاذا كانت الاعتبارات السياسية قد تحول دون ذلك بالنسبة للنظام الجزائري فيمكن للجزائريين كأفراد وكجمعيات وهيئات غير حكومية أن تقوم بمتابعة جلادو فرنسا في المحاكم الدولية، وخاصة أن الأقدام السوداء أصبحوا يلوحون بامكانية التقدم رسميا للمطالبة باسترجاع ممتلكاتهم في الجزائر.

إن أبرز مثال لسياسة الوحشية الفرنسية أثناء الثورة التحريرية المجيدة يتمثل في سياسة التعذيب وفرق الاعدام وكما اسلفنا فان مراكز التعذيب والمعتقلات والمحتشدات من سجون رسمية كانت قائمة حتى قبيل الثورة كسجن تازولت في باتنة المعروف بلامبيز، وسجن سركاجي، ومعتقلات الضاية بوسي Bossuet سابقا، وبوخنيفيس ضواحي بلعباس، وسجن تادميت، ومعتقل الجرف الرهيب وسجن المرسى الكبير العسكري بوهران، معتقل برج منايل ، وسجن عين وسارة Paul cazelles، إضافةإلى سجن النخيل الخمس Les cinq palmiers قرب أولاد فارس بمنطقة شلف... والكثير من السجون التي كانت مؤسسة قائمة بذاتها تعمل وفق اطار قانوني، لكن ما يهمنا في مداخلتنا هي السجون والمعتقلات الغير الرسمية التي لم تكن تعمل وفق قانون تأسيسي، وغير معترف بها قانونا يتمتع مسؤوليها وجلاديها بحصانة قانونية تحميهم من المتابعة والمسائلة القانونية، ويتمتعون بجميع صلاحيات التعذيب والتقتيل والأدهى والأمر أن جميع السلطات المدنية والعسكرية كانت على علم بوجود هذه المراكز لكنها كانت دائما تنفي وجودها ولعل هذه المراكز كانت في الغالب أملاك خاصة غير حكومية فيلات

مثل فيلا سوزيني Villa Susini في العاصمة التي تحولت الى مركز القيادة الغير رسمي لوحدات اللفيف الاجنبي، ومثلت أبشع مراكز التعذيب الفرنسية ابان الثورة التحريرية في الجزائر العاصمة، اضافة الى معتقل مزرعة شوني Chaunu في البليدة Branche)، (474: R.2001 ومزرعة روكس Roux في وادي تليلات أو مزرعة شار Char في بلدية زهانة (98: 86: F.2011 ,SAHRI) والتي كانت في الغالب عبارة عن ملكيات خاصة غير تابعة للادارة الفرنسية صودرت أو هجرها ملاكها من الكولون بعد تردي الأوضاع الأمنية ابان الحرب التحريرية وبذلك سهل على الجيش الفرنسي الاستيلاء عليها وممارسة أبشع وسائل التعذيب بين أسوارها.

وسوف نتطرق في مداخلتنا المتواضعة هذه الى نموذج من هذه المعتقلات السرية الأكثر شهرة في تاريخ الثورة المجيدة ، وهو معتقل مزرعة أمزيان La ferme Améziane في القطاع القسنطيني هذه المزرعة التي عرفت أعمال التعذيب الرهيبة التي فاقت كل توصيف .

التعريف بالموقع:

تقع المزرعة في الضواحي القريبة لمدينة قسنطينة، تتكون من بعض الهكتارات الفلاحية والقريبة من منطقة غابية كانت كما سوف نرى بعد ذلك هذه مكان مخصص للاعدامات، تتوسط هذه المزرعة فيلا بطابق واحد، وحولها اصطبلات وعلى يمين الباب مباشرة مكان مخصص لربط كلاب الحراسة، هذا التوصيف سيفيدنا في ما بعد في معرفة الأماكن التي كانت مخصصة للتعذيب في المزرعة، ولقد كانت المزرعة بعد مصادرتها من طرف الجيش الفرنسي ومركز المعلومات

والعمليات "CRA Centre de Renseignement et d'Action" (EINAUDI، J.1991 :211) قد تم تكيفها حسب متطلبات لايواء الجنود بعدما أتخذ المسؤول النقيب روديي Capitaine Rodier من الطابق الأول من الفيلا مسكنا مقرا له، كما تحول الطابق الأسفل الى مركز للاستنطاق، وتحولت الاصطبلات الى سجون كما تم تخصيص مكان للترفيه عن الجلادين يحتوي على حانة وقاعة سينما (EINAUDI, J. 1991: 27)

كانت ملكية المزرعة تابعة لعائلة أمزيان اسمها الحقيقي بن حمادي ترجع أصولها الى منطقة القبائل ، ويقال أن أصولها تنحدر مباشرة من عائلة المقراني، وكان الباشاغا أمزيان صاحب المزرعة من أعيان وأثرياء مدينة قسنطينة ويحضى بصدقات متميزة مع شخصيات السياسية والمدينة الفرنسية المتنفدة، تحصل على وسام الشرف، كما كان معروف بأعماله الخيرية (EINAUDI, J. 1991: 85)، واستطاع أن يحول مزرعته الى مزرعة نموذجية، فاضافة الى زراعة على طول180 هكتار، فقد جلب الكثير من الحيوانات من فرنسا ومن أجودها لتربيتها في مزرعته وفق أنماط انتاج عصرية، واتسع الأمر بعد انجاز في المزرعة مصنعا لانتاج الحليب ومشتقاته (EINAUDI, J. 1991: 90) بعد اندلاع الثورة التحريرية المجيدة اضطر الباشاغا أمزيان الى الاستقرار في فرنسا، وترك ادارة أعماله في الجزائر الى ابنه مولود الذي سوف يساهم بدعمه للثورة الجزائرية ماديا، هذا الأخير الذي ترك شؤون ادارة المزرعة لشخص يدعى مالك ماز الذي بدوره ساهم في دعم الثورة عبر نقل المعلومات والرسائل الى جيش التحرير، كما كان أحيانا يؤي المجاهدين

ولهذا السبب سوف تقوم فرنسا بمصادرة المزرعة واعتقال مالكها مولود أمزيان و المسير مالك ماز (EINAUDI, J. 1991: 26)

من مزرعة نموذجية الى أبشع معتقلات التعذيب:

هذا المعتقل المزرعة ان صح التعبير له خصوصياته التي ينفرد بها، باعتباره منطقة عمليات خاصة غير معترف بها قانونيا ولا تخضع لأي قانون أو شريعة، صودرت المزرعة بغير وجه حق من مواطن جزائري، وحولت لمركز تعذيب واستنطاق، في وقت كانت قيادات سياسية وعسكرية فرنسية تجهل أو تتجاهل ما يحدث في هذا المعتقل، وقد قامت السلطات العسكرية الفرنسية باعتقال العديد من الجزائريين العزل واستنطاقهم في هذا المكان، لمدة في غالب الأحيان لا تطول، يحولون بعدها لسجون رسمية قانونية، أو يتم تصفيتهم جسديا في المنطقة الغابية المحادية للمزرعة، التي كانت تسمى الشطابا، فاما يحولون لسجون رسمية قانونية وغالبا ما كان الضحايا يستشهدون أثناء الاستنطاق بعدما يقاومون ببسالة جميع أنواع التعذيب يتم كحل أخير تخويفهم بعبارة تكلم والا أخذناك الى الشطابا (EINAUDI, J. 1991: 15)، أو يتم اطلاق صراحهم بعد التأكد الجلي من براءتهم ولا يكون ذلك الا بعد الامضاء على وتيقة تأكد عدم تعرضهم للتعذيب (EINAUDI, J. 1991: 15)

لقد تفنن القائمون على هذا المركز الجهنمي في ابتداع أساليب تعذيب متوحشة تعكس النفسية السادية لهؤلاء الجلادين، كجرائم الاغتصاب الجماعي مرات في حق نساء وفتيات صغيرات السن لم يبلغن بعد، مثل الطفلة بوشتات التي ألحقت بأمها في المعتقل وتم تعذيبها

واغتصابها وهي لم تتجاوز الثلاثة عشر ربيعا(EINAUDI, J.1991 :14) إضافة إلى استعمال الكهرباء في المناطق الحساسة gégène وباستعمال الماء أو الإغراق في أحواض الماء La baignoire، ومرات يملئ هذا الحوض من فضلات الإنسانية(EINAUDI, J.1991 :32)، ويتم إدخال الضحايا هناك في منظر جد بشع وقمة في التقزز، أو باستعمال أداة التلحيم للحرق والتشويه كما حدث مع المجاهد السي نوار، الذي أحرق وجهه بالكامل (EINAUDI, J.1991 :14) وفي بعض الأحيان يجز بالضحايا في مربط الكلاب ، وهي عبارة عن أقفاص لا تتسع حتى للكلاب ويترك الضحايا هناك بدون أكل وشرب لأيام ، وهذا الأسلوب التجويع كان جد مستعمل فغالبا ما كان يترك الضحايا بدون ماء ولا طعام، ويمنع منعا باتا عتقهم بشيء من ذلك، مثل المجاهدة جميلة قلال التي اعتقلت سنة 1959، والتي كتب على باب سجنها ممنوع إطعامها أو اروائها، مما اضطر بعض المجاهدات تقاسم الخبز معها عبر ثقوب أسفل الباب، أو مرة أثارت شفقة جندي الحراسة من جنود الخدمة العسكرية، الذي بلل منديلها ببعض الماء(EINAUDI, J.1991 :22) كما كان الشأن بالنسبة للمجاهد العربي بوحاقم، الذي ترك في قفص صغير80سم طول على 60 سم، وبقي لأيام بدون أكل وشرب(EINAUDI, J.1991 :14) كما كان يتم التخلص من الضحايا الذين استشهدوا تحت التعذيب بإلباسهم الزي العسكري، وتقديمهم للصحافة باعتبارهم أفراد جيش التحرير قتلوا في معارك مع الجيش الفرنسي (EINAUDI, J.1991 :33)

أو الأبشع من ذلك تصفيتهم بشكل عادي في منطقة الشطابا الكلمة التي كانت حاضرة دائما في أفواه الجلادين لإخافة الضحايا وزيادة بذلك

الضغط النفسي، وأبشع المظاهر التخلص من الجثامين عبر ادابتها في في معمل الجبس في منطقة سيدي سليمان (EINAUDI, J.1991:33).

ومن السخرية أنه في بعض الأحيان كان يستدعى الطبيب لتفحص الضحية ولكن الاجراء لم يكن لانقاد الضحية ولكن للحيلولة دون وفاته قبل افتكاك معلومات قد تكون ثمينة بالنسبة للجلادين (EINAUDI, J-.1991 :18) وكان هذه الأعمال الوحشية القدرة تمارس على أنغام الموسيقى دون انقطاع وبصوت عال يبدو ذلك لمنع سماع أصوات الضحايا، ويبدو أن المدرسة الأمريكية استفادت كثيرا من أساليب التعذيب الفرنسية ففي شهادات لبعض معتقلي سجن غوانتانامو الرهيب أكدوابأن أصوات الموسيقى المزعجة والقوية كانت من أساليب التعذيب الرائجة هناك لايقاظ مضاجع السجناء .

كل هذه الأساليب المتوحشة الممارسة في مزرعة أمزين، كانت تحت قيادة النقيب روديي الذي رقي بسبب أعماله القذرة الى رتبة رائد سنة 1959، وكان الرجل ذو ميول سادية متوحشة وغير عادية، لا يغادره سوطه أبدا. حيثكانيتلذذبتعذيبالمعتقلين، ولكن من سوء طالعه أنه شارك في انقلاب الجنرالات الأربعة في 22 أفريل 1961، وثم القاء القبض عليه وزج به في السجن هناك تعرف عليه بعض المعتقلين الجزائريين وتعرض لاعتداء فقأت فيه عينه (EINAUDI, J.1991 :113) إضافة الى جلادين بأسماء مستعارة مثل P'titNicolas, Hervieu, El baz, Muller والحركي الشريف التبسي الذي كان أشدهم على الاطلاق (EINAUDI,J.1991 :13)

انه من الصعوبة بمكان إحصاء عدد المعتقلين الذين مروا بمعتقل مزرعة امزيان بفعل الطابع السري واللاقانوني للمعتقل، وكذلك بسبب المدة الزمنية التي يقضيها السجناء في هذا المعتقل التي كانت لا تتعدى الأيام، قبل أن يتقرر مصيرهم بالتصفية أو إطلاق السراح بعد الإمضاء على وثيقة بعدم تعرضهم للتعذيب، وفي بعض الأحيان كان إطلاق السراح يكون مقابل دفع مبالغ مالية للجلادين،(EINAUDI, J.1991:43) وهذا بالطبع بالنسبة للمعتقلين الذين لم يكونوا يشكلون خطرا، وبعض المعتقلين يتم تحويلهم الى مركز الفرز والعبور "triage et de transit Centre de وهناك يتقرر مصيرهم وهذا بعد تزويدهم بالسيرة الذاتية وكذلك بما يسمى"Fiche de mise hors de combat".
(Branche ,R.2001 :269)

وفي هذه الظروف وعبر المحولين إلى مراكز الفرز، ثم لأول مرة عبر شهادات وأدلة عن وجود حالات التعذيب وثم التعرف رسميا وإعلاميا على هذا المعتقل الجهنمي وتنادى الى أسماع الرأي العام، فتشكلت لجنة تنظر في صحة الأمر وقامت بزيارة المعتقل وسميت بلجنة"– Rouvillois Mailley"والتي أقرت بالطابع السري للمعتقل واعترفت بوجود خروقات أثناء الاعتقال والاستنطاق (Branche,R.2001 :270) لكن المندوب العام دولوفريي Delouvrier امتنع عن وقف نشاط المعتقل، كما ندد مندوب لجنة أودان Audin , LaurentSchwartz بدوره بالأعمال الوحشية الممارسة في المعتقل، بعد ما صرح بأن ما لا يقل عن 108175 أعتقلوا في المزرعة لأكثر من أسبوع بوتيرة 75 معتقل يوميا (Branche, R.2001 :474) وبعد ضغوط تم السماح لمنظمة الصليب الأحمر الدولي

بزيارة الموقع في يوم 4 نوفمبر 1959 ولكن للتعمية عن الأمر تم تحويل المعتقلين إلى أماكن أخرى رغم ذلك دهشت اللجنة من الظروف السيئة في المعتقل (EINAUDI, J.1991 :73)

ان نموذج معتقل مزرعة أمزيان رغم هوله وبشاعته لا يمكن اعتباره الى فاصلة في كتاب الجرائم الفرنسية على امتداد قرن وربع ،سطرته بمداد من دم ونار بغية اخضاع شعب أبي شهد التاريخ أنه يأبى الخنوع والخضوع، فما زادت سياسة التعذيب الفرنسية هذا الشعب الا تصميما على افتكاك حريته مهما كلفه الثمن ضابا بذلك أسمى أمثلة التضحية والبطولة.

قائمة الببليوغرافيا:

1- Branche, Raphaëlle. 2001. La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie (1954-1962), Paris : Gallimard.
2- EINAUDI ,Jean-Luc .1991. La ferme Améziane, Enquête sur un centre de torture pendant la guerre d'Algérie. Paris :L'Harmattan
3- Le Cour Grandmaison, Olivier. 2005. Coloniser, Exterminer, sur la guerre et l'Etat colonial, Alger : éditions CASBAH
4-SAHRI, Fadela. 2011. La bataille de Sidi Ghalem, Oran : éditions Dar El Gharb.